(١١)

منك وإليك
ما حييت في الله
عالِما به وعالَما له

حديث الجمعة

٢٦ رجب ١٣٨٠ هـ - ١٣ يناير ١٩٦١ م

منك وإليك يا رسول الله.. نعم.. (منك وإليك يا رسول الله)[١].

أشهد أنه لا إلى الله، إلا الله. وأشهد أنه ليس من الله إلا الله. وأشهد أنه لا من رسول الله إلا رسول الله. وأشهد أنه لا إلى رسول الله إلا رسول الله.

وأشهد أنه لا إلى عبد الله إلا عبد الله. وأنه لا من عبد الله إلا عبد الله.

هذه هي فطرة الله، وصبغة الله، وقوانين الله في وجود الله، وفي صفات الله.

محمد حق الله.. وعبد الله.. ورسول الله.

يحتفل المسلمون في مثل هذا اليوم من كل عام بما تعارفوه ليلة الإسراء والمعراج. وهو ما تعارفوا على أنه حدث فيه معجزة لرسول الله. وهي حقيقة معجزة لرسول الله من ربه، ومعجزة من رسول الله عند أمته.. ولكن متى يعجِزُ بها رسول الله؟ إنها معجزة من الله لرسول الله أدرك بها آية من آياته الكبرى، وإنها معجزة من رسول الله لمن آمن برسول الله فآمن بالله يرى بها حق نفسه وصدق ربه. إنها معجزة من غيب الله أعْجَزَ بها رسولُه وحقه عبدَ الله ورسولَه، بما أشهده من مكنة حقه ورسوله على عبده ورسوله حتى يستقيم العبد في أمره ويستقيم الرسول في، قوله فيُعرف أمر الرب في أمر النفس شهده في أمر نفسه إن يشأ يخرجه ربه للناس رسولا، يعجزهم في أمر أنفسهم، بما أودع الله به في أمر نفسه، على مثال مما أعجز به في أمرِ نفسه، من أمر ربه ورسوله.

نعم إن الإسراء والمعراج معجزة من رسول الله لقومه يتذوقونها معه آية كبرى ومعجزة لرسول الله من رب رسول الله لنفسه، ذاقها على يد رسول الله إليه رسوله لله كان بها في قومه خاتم النبيين بدوام العارفين السارين العارجين. إن الذي أسرى بمحمد إلي ربه - وهو رسول ربه - علَّم محمدا كيف يُسري بالناس إلي ربه، كما أُسرِي به إلى ربه. وبذلك كان الإيمان بمحمد قرين الإيمان بربه. دعا إلى ربه ليكون ربه هدف الإيمان في قومه. ودعا ربُّه قومه ليكون محمد هدف الإيمان عند قومه، وقد آمنوا معه بربه ربا لهم.

على هذا قام الإسلام، قام على أحدية الله، وعلى أحدية ربوبيته في نفس عبيده مثاليتهم لهم في رسله منهم إلى الناس ومن الناس - رسلا من أنفسهم - كان محمد لهم قيام، ولسبقهم ختام، ولدوامهم إمام، ختم الله به ما قبله، وبدأ الله به ما بعده، فكان آدما في ذاته وآدما في علمه، وآدما في كلمات الله منه، وآدما لكلمات الله إليه. جعل الله منه دورة تمت لآدم، وجعل علمه لنفسه عن دورة آدم، فأقامه إنسانا أسجده للرفيق الأعلى لإنسان سبقه، وأسجد له إنسان لحاقه ذاتا أقدس وروحا أعظم. جعل منه ابنا لآدم في قديمٍ لآدم، وجعل منه آدم في قيام لأبناء لآدم، وجعله قائم وقيوم آدم في ذاته وصفاته، وجعل منه أبا لآدم في ولدِ آدم، وَعَدَه محمود بعثه، ومعاد قيامه من فارض قرآنه يتواجد بإرادته من نافلة قيامه، في صلته بليل وجوده من معنى آدم خلقيته بالناس.

وبذلك كان محمد - وهو آدم في ذاته - مسبوقا بآدم ملحوقا بآدم. آدم وحدانية الأحد في وحدة آدم يجتمع على وحدة سبقه ويتحده، ويجتمع على وحدة آدم لحاقه ويلحق به فيتحده. قرأ كتابه عن أحدية الله في واحدية قديمه وقيومه مع قائمه وقيامه، وفي واحدية جديده له مع قائمه وقيامه منه، فلم يغيب أحدية الله في قيامه وقيومه في الوجود، أو في قيومه مع قائم نفسه، أو في قائمه مع قيام نفسه.

عرف الساعة، وكان رجلها، إلى ربه منتهاها وإليه في الناس غيبهم وشهيدا على شهدائهم برحمته ترعاها. إذا عرفوه وشهدوه وقاموه وأقاموه كان حقهم اجتمعوه. (من رآني فقد رأى حقا)[٢]، (إذا كانت القيامة انقطع كل نسب وحسب وسبب وصهر إلا نسبي وحسبي وسببي وصهري)[٣]. إن القيامة في قيامه على النفوس. وإن الساعة في سلامه للنفوس...

فإذا كان رسول الله في مثل هذا اليوم من أيام الله المتعاقبة غير المبدوءة وغير المنتهية قد شهد في الله أمرا.. أن أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.. قد أسري به على الأرض من مسجد إلى مسجد، من مكان إلى مكان، فكان هذا معنى لرحلته في ذاته من مقام إلى مقام، ومن قيام إلى قيام، ومن صورة إلى صورة، ومن درجة إلى درجة، ومن طور إلى طور، من إنسان إلى إنسان أسري به من المحرَّم على غيره أسوة مرضية للناس إلى أقصى ما ينال طالب الله في أرضه من رحمته

ومن معرفته.. أسري بقلبه في قالبه زويت له الأرض.. أسراه في قلبه متسعا لما لم تتسع له الأرض.. سرى بقلبه في معناه من قلب إلى قلب.. أسرى أناه في قلبه نفسا طواها من حال إلى حال.

حرم قلبه على غير الله فصار قلبه حرما لله، ولبيوت الله.. فما أحب في قيامه ومعناه سواه، وما طلب سواه، وما ركن لسواه، وما ضعف أمام سواه، وما افتقر لسواه، وما اعتز بسواه، وما عمل لسواه، وما تحدث عن سواه، فكان قلبه بيت الله الحرام والمحرم على سواه، لا يدخله من الناس من به بقية لسواه، لا يدخله من الناس إلا من كانوا وجوها لله، ولا يطوف به من الناس من يطلبون سواه، ولا تتفتح أبوابه لأحد من الناس يطرق بابا سوى أبوابه، أو يلبس جلبابا غير جلبابه. إن قَلب محمد هو حضرة الله لمن طلب الله، وهو جنة الله لمن لحقته نعمة الله.

يا أيتها النفس المطمئنة، ادخلي في محمد. ادخلي في قلب محمد. ادخلي في عبادي أصفياء مصطفين بيوتا موضوعة. ادخلي في عبادي مسحاء محمودين بيوتا مرفوعة. يا أيتها النفس المجاهدة أقيمي الصلوات، وحافظي على الصلاة الوسطى. اركبي سفن النجاة تأتيك من أرض محمد عبر بحار الله لتحملك إلى أرض النجاة.. إلى أرض محمد.. إلى الأرض الطيبة.. إلى الأرض التي لا يعصى فيها الله، والتي لا يحتجب عنها نور الله، ولا تغرب عنها شمس ذات الله.. إنها المدينة الطيبة. إنها مدينة العلم. إنها مدينة الوجود. إنها مدينة الحياة. إنها مدينة العيون. إنها أرض السر المكنون، وشجرة الزيتون.

عرج رسول الله، عرج رسول رب محمد بمحمد إلى مدينة حق محمد ورب محمد. فعندما دخل مدينته.. عندما دخل جنته.. عندما دخل حقيقته.. عندما تعرض لشمس ذات الله عبدًا له ووجها له.. عندما رأى بلطيف نور الله عظمة نور الله.. عندما رأى بعين الله فيه وجه الله له.. عندما رأى بوجه الله ذات وجوه الله.. عندما قام في حضرة ربه فأنطقه بما نطق، وعلَّمه بما علم، وأقامه بما قام به، وسرمده بوصفه، وحققه بقديم معناه، وقديم قيامه ومبناه، حقيقة من حقائق الله في الملأ الأعلى لله، من حكماء الله، وأوادم الله، وعباد الله، ووجوه الله، كان بذلك لمحمد الخلد.. ثم عاد محمد إلى وعيه ومعناه من الأرض، عاد إلى وعيه الأرضي قديما لمحدث فيه، عاد لحسه الأرضي، وذاته الدموي، ووجوده الترابي، وقيامه المقيد، عادت نفسه الروح إلى نفسه الأرض.. عاد عقله إلى مجاله الأرض.. وما الأرض فيه إلا ذاتيته نواة لعالم أكبر، بل نواة لعوالم أكبر.. نواة لعالمين هو لهم جماع، وهو لهم سيد، وهم لهم راع، وهو عَليهم قائم، وهو لهم رب، وهو العبد المسود من ربه القائم فيه، الفاعل به.

عرف نفسه فعرف ربه. عرف نفسه فعرف ضعفه وجهله وفناءه، وعرف ربه فعرف قدرته، وعرف عزته، وعرف أحديته، وعرف صمديته، فكان فيما عرف من معرفته عنه، إنما هو صادر من نفسه إلى نفسه، وطالب بنفسه لنفسه.. فكان الأمر حقيقة كما قال له رسول ربه وقد عَرَفه بعد إذن بمعرفته، وهو رفيق علمه، ورفيق نشأته، ورفيق وجوده، ورفيق تواجده في الأقدم والأحدث من وجوده (منك وإليك يا رسول الله)[٤].

وها نحن اليوم في طريقه وفي دينه، نجدد إيماننا به ويجدد لنا رسالته وإسلامه فينا، فنشهد ما شهده رسول ربه من حقيقة أمره، فنقول نعم... منك وإليك يا رسول الله. منك في قديمك، وإليك في قيامك. ومنك في قيامك، وإليك في دوامك، يا رسول الله. منك وإليك البلاغ، والكتاب. ومنك وإليك الحكمة والحجاب. ومنك وإليك، ابنا لآدم. ومنك وإليك آدم، ومنك وإليك أبا لآدم. ومنك وإليك أصلا لآدم. ومنك وإليك فرعا عن آدم. منك وإليك إنسانا ما قبل الإنسان. منك وإليك إنسانا ما بعد الإنسان. منك وإليك إنسانا مشهودا من أنفسنا في القيام. منك وإليك دائما يا رسول الله. ويا عبد الله، ويا حق الله، ويا وجه الله.

منك ما قبل الكون، وإليك إنسان الكون، ومنك إنسان الكون، وإليك ما بعد الكون. نعم منك وإليك دائما يا رسول الله. منك من الوجود لا بداية له، وإليك في الوجود لا نهاية له. ومنك في الوجود لا إحاطة به، وإليك في الوجود لا إحاطة بك.. يا رسول الله!

إن المعرفة في رسول الله، هي المعرفة في الله وعن الله. وإن المعرفة في رسول الله هي المعرفة عن الوجود وموجده، ودوام قديم وجوده. إن المعرفة عن رسول الله هي المعرفة عن قوانين الوجود وقوانين الحياة. إن المعرفة عن رسول الله هي معرفة كل إنسان عن نفسه، واجتماع كل كائن على كينونته، وعقل العقل لمعقوله عن عاقله، وإدراك الذات عن الذات ومن أوجدها، وعن الذات وما تتواجد.. إن المعرفة عن رسول الله هي جماع كتب الله، وجماع أناجيل الله، وجمع قرآن الله، وجماع وجمع خلق الله، وجماع وجمع حقائق الله.

إن المعرفة عن رسول الله هي دين الله، وهي كشف الحجاب عن الحق من الله. والغفلة عن هذه المعرفة هي الحجاب عن حقائق الله.

إن رسول الله هو قرآن الله، وهو كتاب الله، وهو نور الله، وهو شمس ذات الله، جعله دليلا على معناه، وقياما معبرا بجلاه، ورحمة لمن رحم منه فهداه. فما كان بوحدانيته إلا إياه. دخلت أمته به في

حصن لا إله إلا الله، بدخولها في حصن محمد رسول الله.. شهدت أن لا إله إلا الله بعقولها، فأشهدها الله أن محمدا رسول الله بحسها وخلاصها.

إلى متى نبقى في جهل عن رسول الله؟ وإلى متى نبقى بمنأى عن رسول الله؟ وإلى متى نقنع بلفظ رسول الله دون رسول الله، ودون حقيقة رسول الله، ودون قيامنا رسول الله، ودون شهودنا في أنفسنا رسول الله، ودون إدراكنا في قيامنا آدم الله يقومنا ونقومه، ويشهدنا ونشهده، ويتواجدنا ونتواجده، فنحيا بالله وباسم الله، وبذكر الله، وبعباد الله، وبحقائق الله، وبنور الله، وبرسل الله ...؟!

إلى متى نبقى بمنأى عن إدراك معاني الحياة، في ساعة الحياة، بأمانة الحياة، بطيب الحياة بالحي الذي يحياها ويحييها، بالقيوم الذي يرعاها ويسقيها؟!

متى تستيقظ عقولنا؟ ومتى ترجع نفوسنا؟ ومتي تترنم عقولنا؟ ومتى تطيب حياتنا؟ ومتى ينقطع شقاؤنا؟ وأمر ذلك كله بيدنا؟

ما عرفنا ما جاءنا به محمد، وما قام به بيننا محمد، وما يتكاثر به فينا محمد، وما يقوم به بيننا على دوام محمد، وما يُبعث به فينا على تتابع محمد، وما يتطور إليه فينا على كمال محمد.

هذا هو الدين وهذه هي الحياة. فمتى نرجع للدين فنقيمه في أنفسنا، ونرجع للحياة فنراها في أنفسنا، فلا نسوف حق الله، ولا نسوف جنان الله، ولا نسوف نار الله، ولا نسوف ساعة الله، ولا نسوف حساب الله، ولا نسوف قيام الله، فنشهد أن لا إله إلا الله، ونشهد أن محمدا رسول الله؟ متى نشهد أن لا إله إلا الله؟ متى نشهد أن محمدا رسول الله؟

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله. أستغفر الله وأتوب إليه، وأرجع إليه، وأستعين به، باسمه مشهودا لاسمه اللهم، محكما في ذكرك اللهم، ظاهرا في وجهك اللهم، مسموعا بلسانك اللهم.

اللهم اغفر لي واغفر للاهم، وارحمني وارحم اللهم، واقبلني واقبل اللهم - باسمك اللهم - لا إله إلا أنت ولا معبود سواك.

اللهم ولِ أمورنا خيارنا ولا تولِ أمورنا شرارنا، وعافنا من إقامة عدلك فينا وعاملنا بعفوك ورحمتك. عافنا مما نحن له أهل، وعاملنا بما أنت له أهل. اللهم أيقظنا حكاما ومحكومين، علماء وجاهلين، روادا ومرودين. اللهم ارحمنا برحمتك وقومنا بإرادتك. اللهم سربلنا بسرابيل عفوك، وخذ بنواصينا إلى الخير واجعل اللهم خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائك.

أضواء على الطريق

إذا أسفر بين الناس آدمٌ لله كان الناس في أدب العلاقة والسلوك أبناءه.

وإذا أسفر بين الناس كلمة لله كان الناس في أدب العلاقة والسلوك إخوته.

وإذا أسفر بين الناس وجهٌ لله كان الناس في أدب العلاقة والسلوك وجوهه.

وإذا أسفر بين الناس عبدٌ لله كان الناس في أدب العلاقة والسلوك رفاقه.

وإذا قامت صلة للغيب بالناس كان الناس في أدب العقيدة عبيده. فالتسليم يكون لوجهه، والمعرفة تكون عن آدمه، والمحبة تكون لكلمته، والأسوة تكون بعبده، والعقيدة تكون لغيبه.

وقد جمع الإسلام لإنسانه كل هذه الصفات، فكل ذلك اجتمع للإنسان في معاني رسوله، واجتمع للناس في متابعة رسوله ومحبته.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٢ حديث شريف: مَن رآني فقَدْ رَأَى الحقَّ؛ فإنَّ الشَّيْطانَ لا يَتَكَوَّنُنِي." صحيح البخاري. وقد جاء بلفظ "مَن رآني في المَنامِ فقَدْ رآني، فإنَّ الشَّيْطانَ لا يَتَشبه بي". صحيح ابن حبان.

٣ حديث شريف: "كلَّ نسَبٍ وصِهرٍ ينقطع يومَ القيامةِ إلا نسَبي وصِهْري". رواه الطبراني، والحاكم، والبيهقي، ورواه أحمد في مسنده، كما جاء أيضا بلفظ: "كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي." أخرجه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)).

٤ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.